هذه المسألة العظيمة، هائلة الحجم، يجرى تجاهلها واختصارها بصفحة واحدة في كتاب يضم ٤٠٠، صفحة يؤلفه سبعة من الباحثين الفلسطينيين باستثناء رئيس تحريرهم، وهو تجاهل يصعب القفز عنه؛ اذ اننا حين نكتب التاريخ الفلسطيني ـ القريب منه والبعيد ـ نكون قد وضعنا يدنا على المستقبل الفلسطيني وكيفيته. ولأنه مستقبل لم يزل غامضاً بعض الشيء، فمن الصعب التساهل مع محاولات تجاهل مفاصله التاريخية، لأنها هي التي تشكّل مفاصل مستقبل هذا التاريخ.

٢ ـ الافق الفلسطيني

اننا نعتقد بأن قيمة كل كتاب يكتب، أو كل كلمة تقال، تكمن، فقط، في قدرتها على التأثير في المسار العام، أو اضافة فاصلة إلى كنه المستقبل؛ اما اذا تعلق الامر بالمستقبل الفلسطيني بالذات ـ وذلك لشدة تعقيده ـ فان مثل هذه القيمة تزداد أهمية وتتضاعف الحاجة اليها. ومثل هذا الامر لم يتضمنه الكتاب؛ لم يتضمن التطلع إلى الافق والمستقبل الفلسطيني؛ لم يتضمن المساهمة أو حتى الاشارة إلى كيفية تحديد مسارات الواقع، وإلى كيفية انتهاء الامور إلى نهايتها المنطقية.

فالمرحوم د. الخطيب انهى فصله الخاص بـ «حروب منظمة التحرير الفلسطينية مع اسرائيل»، والذي انتهى به الكتاب كله، بتقويمه الممتاز لخلاصة هذه الحروب الذي استخلص القيمة الفعلية لها، وهي عجز طرفي الصراع عن تدمير وابادة احدهما للآخر؛ وعجز الكتلة الحربية الاسرائيلية الهائلة عن تحقيق هدفها السياسي المتمثل بابادة م.ت.ف.ومن خلالها ابادة الشعب ـ الخصم، الشعب الفلسطيني؛ وعجز الكيانية الفلسطينية عن الحاق الهزيمة المطلقة بالعدو ـ المستوطن.

وهنا، بالذات، انتهى البحث. وبمعنى من المعاني، لم تتوفر الاجابة عن السؤال المنطقي: وماذا بعد ؟ ماذا بعد هذا العجز المتبادل ؟ وكل وعي واقعي لدى الخصمين، هنا، قادر على الاجابة، ولا اجابة غيرها: الحل الوسط . ومثل هذا الحل الوسط بالذات، أو كيفية النظر المنطقي إلى افق الصراع، النظر الواقعي الى عجز الخصمين عن تدمير أحدهما للآخر، كان هو النتيجة المنطقية لمثل هذا الكتاب، كأن يخصص له فصل كامل، إما ان يكتبه رئيس التحرير بالذات كمشرف على العمل وقادر على الاحاطة بشموليته واستنتاجه وآفاقه، واما ان يتولّاه آخرون يملكون القدرة والحرية الذهنية للتطلع إلى هذا الافق الذي يبدو غالباً وكأنه مقفل.

ولا نريد، أبداً، التقليل من جهد الاخوة الباحثين، أو من جهد رئيس التحرير؛ لكننا نرى أن هناك فرقاً أساسياً، فرقاً كبير الحجم، بين العمل التوثيقي البحت وبين العمل التوثيقي الذي يسند التحليل، وذلك بهدف الوصول، أو المساهمة في الوصول، إلى النتيجة العامة، أو الرؤيا العامة. وكان جدير بالكتاب أن يصل إلى هذه الرؤيا العامة.

س. س.